الفصل الثاني

الفتح العثماني في أوروبا

أورخان بن عثمان (٧٢٧ - ٧٦٢هـ / ١٣٢٦ - ١٣٦٠م)

تولى السلطنة بعد عثمان ابنه الأكبر أورخان عام ٧٢٧ هـ/١٣٢٦ م، ويعتبر المؤسس الثاني للدولة العثمانية. وقد قام بدور كبير في حياة أبيه لما يتمتع به من عقلية تنظيمية، إذ قسم شؤون الدولة بين أخيه علاء الدين وبين ولديه سليمان ومراد. وجعل من أخيه وزيراً يختص بتنظيم الشؤون الداخلية، فكان علاء الدين أول وزير في تاريخ الدولة العثمانية. وانصرف أورخان إلى العمليات الحربية وهكذا سارت العمليتان جنباً إلى جنب البناء الداخلي والفتح. وقد اتخذ لنفسه لقب سلطان، وبذلك يكون أول العثمانيين في تلقيب نفسه بهذا اللقب[١].

وقد استولى العثمانيون في عام (٧٣١هـ / ١٣٣٠م) على مدينة نيقيا (استك الحالية) وكانت من أهم المدن في الامبراطورية البيزنطية، وعهد أورخان إلى ابنه الأكبر وولي عهده سليمان بحكم هذه المدينة، واستولى عام ١٣٣٧ على نيقوميديا (أزمت الحالية) وكانت آخر معقل

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٠٩ ــ ٤١٠.

للدولة البيزنطية في الركن الشمالي من شبه جزيرة آسيا الصغرى. وبسقوط هذه المدينة والمنطقة الغربية من الأناضول، انفسح الطريق أمام العثمانيين للوصول إلى البسفور[١].

ولم يلبث أن ضاعف أورخان مساحة الأراضي التركية المطلة على بحري مرمرة وإيجة، وذلك باستيلائه على دويلة «قره سي»، وقوى جيشه بعد ذلك بإنشاء الجيش الانكشاري، وهو جيش من المشاة قوامه أبناء المسيحيين[٢].

فقد فرضت الدولة العثمانية ضريبة آدمية على العائلات المسيحية في البلاد التي فتحوها، فكانوا يأخذون ولداً واحداً من كل أسرة مسيحية. ويطلق على هذه الضريبة في اللغة التركية «ديو شيرمة» أي ضريبة الغلمان. وكان العثمانيون يمارسون في العادة جمع الأولاد من الريف والقرى. وكانت الدولة تعمل على تحويل الأولاد إلى الإسلام. ويتلقون تربية عسكرية دينية، فيتعلمون مبادئ الدين الإسلامي واللغة التركية والتاريخ الإسلامي العام والنظم العثمانية وغيرها، وفق مناهج تعمل على حب الدين الإسلامي والدولة العثمانية[٣].

وعلى العموم، فقد اتسمت فترة حكم أورخان بأمرين أولهما: اتساع الفتوحات العثمانية في عهده، وثانيهما تنظيم الحكم في الدولة بعد اتساع رقعتها، وقد عمل هذا التنظيم على استقرار الدولة وتوسعها وقد أصدر السلطان أورخان مجموعة القوانين لتنظيم أمور الحكم وضرب العملة الذهبية والفضية وأسس الجيش الجديد[٤].

---

(١) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية بيروت ١٩٧٧، ص ٤٢ ــ ٤٤.
(٢) نفس المرجع.
(٣) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص ٣٥ ــ ٤٠.
(٤) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤١٠ ــ ٤١٥.

وعلى كل حال، فإن الإمبراطور البيزنطي يوحنا باليولوج Paléolgue لم يستطع أن يغير شيئاً من الوضع العسكري للعثمانيين في تراقيا وحول بحر مرمرة، حيث إن أورخان استولى على جزيرة غاليبولي عام (٧٥٩ هـ / ١٣٥٧م)، علاوة على أنه كان قد حاصر القسطنطينة عام (٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧م) لكنه لم يتمكن من فتحها. واضطر الإمبراطور إلى عقد معاهدة مع السلطان أورخان اعترف بموجبها بمركز العثمانيين في إقليم تراقيا، كما تقرر في هذه المعاهدة أن يتزوج خليل ابن السلطان من ابنة الإمبراطور والبالغة من العمر عشر سنوات، وقد شهد عام (٧٦١هـ / ١٣٥٩م) موت سليمان، فحزن عليه والده أورخان حزناً شديداً عجل بموته في العام التالي، وتولى بعده ابنه الثاني مراد الأول[١].

السلطان مراد الأول (٧٦١ - ٧٩١ هـ / ١٣٦٠ ــ ١٣٨٨م)

كان مراد الأول محارباً قديراً ذا نزعة دينية قوية، وكان شديداً في تمسكه بالنظام، عادلًا مع رعاياه، كريماً مع جنوده، وأولع ببناء المساجد والملاجئ والمدارس. وقد جمع إلى جانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء العسكريين، واستطاع أن يمضي في علياته الحربية في أوروبا وفي آسيا الصغرى في وقت واحد تقريباً[٢].

ففي أوروبا، هاجم الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية، ثم استولى عام (٧٦٢ هـ / ١٣٦٠م) على مدينة أدرنة ذات الأهمية الاستراتيجية في البلقان، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية. واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية

(١) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤١٠ ــ ٤١٥.
(٢) د/سيد الدقن، المرجع السابق، ص ٢٠.

منذ عام (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)، وبذلك انتقلت عاصمة الدولة من آسيا الصغرى إلى أوروبا، وتحولت أدرنة من مدينة بيزنطية مسيحية إلى عاصمة عثمانية إسلامية. وقد استهدف مراد من هذه النقلة:

١ ـ استغلال مناعة استحكامات أدرنة الحربية وقربها من مسرح العمليات الحربية.

٢ ـ أراد مراد أن يتيح الفرصة أمام العثمانيين كي يهضموا الأقاليم الأوروبية التي وصلوا إليها في زحفهم ويوطدوا أقدامهم فيها.

٣ ـ لما كانت أدرنة تقع بفضل موقعها الجغرافي وسط بلاد يدين سكانها بالنصرانية، فقد أراد السلطان مراد أن يجعل من هذه المدينة مركزاً لجمع أبناء النصارى للتجنيد[١]. والواقع أنه سرعان ما تركزت في هذه العاصمة الجديدة جميع المقومات اللازمة للنهوض بالدولة وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الانكشارية. وقد ظلت أدرنة على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني حتى فتح العثمانيون القسطنطينية في عام (٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م)، فاتخذوها عاصمة لدولتهم[٢].

ولقد مضى السلطان مراد في سياسة التوسع الإقليمي في أوروبا، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا. وكان لانتصاراته أصداء بعيدة، فتكون تحالف أوروبي بلقاني صليبي باركه البابا أوربان الخامس، وضم الصربيين والبلغاريين والمجريين، وسكان إقليم والاشيا. وقد استطاعت الدول

(١) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤١٦.

(٢) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ١٩ ــ ٢٢.

الأعضاء في التحالف الصليبي أن تحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جندي تصدى لهم القائد العثماني «لالاشاهين» بقوة تقل عدداً عن القوات المتحالفة، وقابلهم على مقربة من «تشيرمن» على نهر مارتيزا، حيث وقعت مذبحة مروعة واضطرب نظام الجيش المتحالف ولاذ بالفرار الأميران الصربيان، ولكنهما غرقا في نهر مارتيزا، ونجا ملك المجر من الموت بأعجوبة. وقد نجم عن هذا الانتصار نتائج هامة بالنسبة للعثمانيين: فقد استكملوا فتح إقليم تراقيا ومقدونيا ووصلوا إلى جنوبي بلغاريا وإلى شرقي صربيا واستمر مراد يستولي تباعاً على المدن من أملاك الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا، والتي كانت تتساقط في أيديهم كأوراق الخريف[1].

ولم يلبث أن واجه العثمانيون عام (٧٩٠ هـ/١٣٨٧م) تحالفاً بلقانياً صليبياً جديداً: فقد عقد «لازار» ملك الصرب معاهدة تحالف مع «شيشمان» ملك بلغاريا، واستهدف الملكان إعداد حملة جرارة ضد العثمانيين. وقد ضمت هذه الحملة ـ عدا القوات الصربية والبلغارية قوات من البوسنة والهرسك ومن ألبانيا وبولندا والمجر. وبلغت القوات التي حشدت قرابة مائتي ألف جندي. وسرعان ما زحف مراد بقوات جرارة رهيبة، وتقابل الجيشان في ١٥ يونيو ١٣٨٩ م/٧٩٢ هـ في قوصوه، حيث دارت معركة بالغة العنف. وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدها العثمانيون، فقد انتهت بانتصارهم. وبينما كان السلطان مراد يتفقد ميدان القتال بعد المعركة، طعنه أحد الجرحى الصربيين بخنجر، فتوفي على الفور[2].

وكان من أهم نتائج معركة قوصوه ما يلي:

---

(١) إبراهيم حليم بك، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، القاهرة ١٩٠٥، ص ٤٢.

(٢) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص ٣٤.

١ ـ ضياع استقلال بلاد الصرب حتى القرن التاسع عشر.

٢ ـ انتشار الإسلام بين الصربيين: فقد تحول عدد كبير من الأشراف القدامى والطاعنين في السن إلى الإسلام بمحض إرادتهم، إذ وجدوا أنه من المتعذر عليهم الهجرة إلى البلاد النصرانية المجاورة من ناحية، ورغبة في الاستبقاء على امتيازاتهم القديمة من ناحية أخرى. وكان العثمانيون قد قرروا الإبقاء على هذه الامتيازات لمن يعتنق الإسلام، ولكن ظل السواد الأعظم من الصربيين متمسكاً بالنصرانية[١].

السلطان بايزيد الأول (٧٩٢ - ٨٠٥ هـ / ١٣٨٨ - ١٤٠٣م)

تولى بايزيد الحكم بعد استشهاد والده مراد، ولم يكن بايزيد الأول أقل حماساً من أبيه في الفتوحات، فاهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية، وولى وجهه صوب الإمارات البيزنطية في الأناضول، ولم يمض عام من ولايته حتى فقد البيزنطيون آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، وهي مدينة آلاشهر. وبذلك انحصر نفوذ الإمبراطور البيزنطي «مانويل» على أتباعه في الغرب. وكان بايزيد سريعاً في تنقلاته الحربية بين الجبهتين الأناضولية والبلقانية حتى أطلق عليه «الصاعقة»[٢].

ورأى السلطان بايزيد الأول بادئ ذي بدء أن يقيم علاقات ودية مع ما تبقى من دولة الصرب بالرغم من أن هذه الدولة هي التي دعت إلى قيام تحالف بلقاني ضد العثمانيين، وهي التي تزعمت الحرب ضدهم. وقد استهدف بايزيد من هذه السياسة اتخاذ الصرب دولة حاجزة بينه وبين المجر، إذ كان يخشى أن تنتهز فرصة انشغاله في

(١) محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤١٩.

الجبهة الأناضولية فتغير على الأقاليم العثمانية في البلقان. وفضلًا عن ذلك، فقد كان يريد أن يتخذ من دولة الصرب حليفة له في الحروب التي كان لا بد له من خوضها، لأنه كان قد وطد العزم على اتباع سياسة حربية نشيطة تستهدف ضم الإمارات السلجوقية التركية الإسلامية في آسيا الصغرى ما استطاع إلى ذلك سبيلًا[1].

وتمشياً مع سياسته تجاه الصرب، وافق بايزيد على أن يحكمها ابنا الملك «لازار» الذي ذبح في معركة قوصوه، وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصرب وتقاليدها وعاداتها، ويدينان له بالولاء ويقدمان له جزية سنوية وعدداً معيناً من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم إلى جانب الجيش العثماني.

وبعد أن فرغ من هذا التخطيط السياسي، قام بايزيد عام (٧٩٧هـ / ١٣٩٣م) باكتساح بلغاريا وإخضاع سكانها، وبذلك فقدت البلاد استقلالها السياسي. وكان لسقوط بلغاريا في أيدي العثمانيين دوي هائل في أوروبا وعم الجزع أنحاءها. وبعث سيجسموند ملك المجر إلى السلطان بايزيد يعنفه ويسأله بأي حق سولت له نفسه غزو بلغاريا، وذلك لأن الموقف بالنسبة لبلاد المجر يزداد خطورة يوماً بعد يوم نتيجة اقتراب العثمانيين من حدود المجر[2].

ومن ثم، فقد واجه بايزيد الأول تكتلًا دولياً مسيحياً صليبياً، كان أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر، من حيث عدد الدول التي اشتركت فيه، ثم أسهمت فيه بالسلاح والعتاد والأموال والقوات. وقد دعت إلى هذا التكتل شخصيتان هما:

(١) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤١٩ .
(٢) إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٣ ــ ٢٤.

سيجسموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع. وبلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة الصليبية ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا وإنجلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبرج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الإيطالية)[١].

وسارت الحملة عام (٨٠٠ هـ / ١٣٩٦م) إلى المجر، ولكن قادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة. فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمانيون الهجوم، ولكن قواد الحملة رأوا أن يبدؤوا الهجوم، فانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى نيكوبوليس شمال البلقان وشرعوا في حصارها وتغلبوا في أول الأمر على القوات العثمانية، إلا أن بايزيد ظهر فجأة ومعه حوالي مئة ألف جندي، وهو عدد يقل قليلًا عن الصليبيين، ولكنه يتفوق عليهم نظاماً وسلاحاً، فاضطر معظم المسيحيين إلى الفرار، وقتل وأسر عدد من قادتهم. وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم وفيرة واستولوا على ذخائر العدو[٢].

وقد أدى انتصار العثمانيين على هذا التكتل الدولي الصليبي الواسع النطاق إلى توطيد أقدامهم في البلقان، حيث انتشر الفزع بين الشعوب البلقانية، وخضعت خضوعاً تاماً البوسنة وبلغاريا، وراح الجنود العثمانيون يتتبعون فلول الصليبيين في ارتدادهم. واقتص السلطان بايزيد من حكام شبه جزيرة المورة اللاتين الذين قدموا مساعدة عسكرية للصليبيين، فدمر أراضيهم[٣].

---

(١) د/علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، بيروت ١٩٨١، ص ٢٤ ــ ٢٥.

(٢) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٢٠.

(٣) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، ص ٧٣ ــ ٧٤.

وفي عام ٨٠١ هـ/١٣٩٧ م طلب السلطان بايزيد الأول من مانويل الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية تسليمه القسطنطينية، فرفض الإمبراطور والحق أن الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفاً رئيسياً في البرنامج الحربي للسلطان بايزيد الأول. ولذلك فقد تحرك على رأس قواته يضرب نطاقاً محكماً من الحصار حول هذه العاصمة ويضغط عليها ضغطاً لا هوادة فيه[١].

وبينما كانت أوروبا تتوقع سقوط العاصمة العتيدة بين يوم وآخر، إذا بالسلطان ينصرف عن فتح القسطنطينية، بل ينصرف عن التوسع الإقليمي في أوروبا ليوجه كل طاقات الدولة لدفع خطر الغزو المغولي الذي هدد الدولة في كيانها ووجودها. وقد زحف تيمور الأعرج على رأس قوات جرارة من المغول على آسيا الصغرى. فأسرع بايزيد لمهاجمته، وتقابل الجيشان في معركة أنقرة في ٢٠ يوليو ١٤٠٢م (٨٠٤هـ) وانتصر المغول ووقع بايزيد في الأسر، وظل يرسف في أغلاله حتى وافاه الأجل في السنة التالية[٢].

وكان هجوم تيمور الأعرج على الدولة العثمانية من أكبر معوقات الزحف العثماني العسكري على أوروبا. وكان من نتائج هذا الهجوم أن تأخر فتح القسطنطينية خمسين سنة. ولولا غزوة تيمورلنك لفتح بيازيد هذه العاصمة.

وتعرضت الدولة العثمانية لخطر آخر بعد أن انسحب تيمورلنك من آسيا الصغرى إلى عاصمته سمرقند. فقد نشبت حرب أهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات (٨٠٦ - ٨١٦هـ / ١٤٠٣ - ١٤١٣م) وانتهت باعتلاء السلطان محمد بن

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، ص ٧٣ - ٧٤ .
(٢) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٢٠.

بايزيد، وقد عرف باسم السلطان محمد الأول، ويسمى أيضاً السلطان محمد شلبي (٨١٦ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٣ - ١٤٢١م).

محمد الأول (٨١٦ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٣ - ١٤٢١م)

وكان السلطان محمد الأول شديد البأس وافر النشاط. ومع أنه لم تكن له فتوح حربية، فقد أسدى إلى الدولة خدمة جليلة. إذ أزال آثار هزيمة معركة أنقرة، وعمل على تنظيم الدولة، بحيث مهد الطريق أمام خلفائه السلاطين ليتابعوا سياسة التوسع الإقليمي من جديد، سواء في أوروبا أو في غيرها. ولما تولى ابنه مراد الثاني العرش، استأنف الزحف العسكري على أوروبا[1].

السلطان مراد الثاني (٨٢٤ - ٨٥٥ هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١م)

تولى عرش الدولة بعد والده السلطان محمد الأول، واستأنف سياسة التوسع الإقليمي، وساعده على تنفيذ برنامجه أن حكمه قد امتد ثلاثين عاماً. وكان يمتاز بالنشاط والكفاية العسكرية والاستقامة الخلقية.

وفي مستهل حكمه، عمل مانويل الثاني امبراطور الدولة البيزنطية على إثارة المتاعب في وجهه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، واتخذ من عم للسلطان يسمى مصطفى وسيلة لهذه الغاية. وبتحريض من الإمبراطور، وبمساعدات من اليونانيين، حاصر مصطفى مدينة غاليبولي ابتغاء انتزاعها من السلطان واتخاذها قاعدة له. واستطاع مراد الثاني أن يرفع الحصار عن هذا الثغر الهام وأن يقبض على مصطفى ويقدمه للمشنقة. ومع ذلك، فقد مضى الإمبراطور مانويل الثاني يكيد كيداً للسلطان، واستطاع أن يحتضن شقيقاً لمراد الثاني اسمه مصطفى، ولم يكن يتجاوز

(١) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ٢٩ - ٣١.

الثالثة عشرة من عمره، ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة نيقيا في الأناضول، وسار إليه مراد، وكانت نهايته على غرار سميه مصطفى: الاستسلام ثم الشنق. ومن ثم، فقد قرر مراد أن يقتص من الإمبراطور باحتلال سالونيك، فهاجمها ودخلها عنوة في ٢٠ مارس، ١٤٣٠، (٨٣٣ هـ) ودمرها تدميراً. ولم يعاود هذا الثغر الهام الازدهار إلا تدريجياً، حيث استعاد نشاطه في ظل الحكم العثماني[١].

وقبل أن يحتل العثمانيون سالونيك ويدمروها عام (٨٣٣ هـ / ١٤٣٠م)، كان اهتمام السلطان مراد الثاني موجهاً نحو القضاء على حركات التمرد التي قامت بها الشعوب البلقانية والعمل على تثبيت دعائم الحكم العثماني في البلقان إذ كانت توجد جاليات ألبانية في بلاده المورة أبدت نوعاً من المقاومة للحكم العثماني. واستطاع الجيش العثماني القضاء على هذه الحركة. ويقال إن العثمانيين جمعوا رؤوس القتلى ووضعوها في ترتيب خاص على شكل الأهرامات. واتجه جيش عثماني نحو الشمال حيث أخضع إقليم ولاشيا وفرض عليه جزية سنوية، واضطر ملك الصرب الجديد (ستيف لازار ميتش) إلى مسايرة العثمانيين وجدد ولاءه للسلطان: واتجه جيش عثماني نحو الجنوب، حيث وطد دعائم الحكم العثماني في بلاد اليونان[٢].

ولم يلبث أن استأنف السلطان مراد الثاني سياسة التوسع الإقليمي، وحارب في جبهتين رئيسيتين، هما: ألبانيا والمجر.

فقد دخل العثمانيون ألبانيا عام (٨٣٤ هـ / ١٤٣١م) وركزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد. أما شمالي ألبانيا، فقد خاض العثمانيون فيه صراعاً حربياً مريراً، وتمكن الألبانيون الشماليون من إبادة

---

(١) محمد فريد بك، المرجع السابق، ص ٥٤.

(٢) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٦٣.

جيشين عثمانيين في جبال ألبانيا، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيتين متعاقبتين كان يقودهما السلطان مراد بنفسه، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة في الأرواح أثناء عمليات الانسحاب. ولا شك أن هذا العنف الذي أبداه الألبانيون في المقاومة، كان مرده إلى المساعدات التي كانوا يظفرون بها من البندقية عن طريق البحر. فقد كانت حكومة البندقية تدرك خطورة السيطرة العثمانية على هذا الإقليم الهام بشاطئيه وموانئه الهامة، وأن في استطاعة العثمانيين قطع خطوط المواصلات البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجي، وأنه في استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الأدرياتيك. وهكذا لم يشهد السلطان مراد الثاني استقراراً للحكم العثماني في ألبانيا[1]؟

وفيما يتعلق بجبهة المجر، فقد تجددت الحرب بين العثمانيين والمجريين عام (٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م). وفي بداية هذه الحرب، حالف التوفيق السلطان مراد واستطاع أن يهزم المجريين ويأسر منهم سبعين ألف جندي وأن يستولي على بعض المواقع، ثم تقدم لفتح بلغراد عاصمة الصرب، ولكنه أخفق في محاولته وسرعان ما تكون حلف صليبي كبير باركه البابا، واستهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوروبا كلية. وشمل الحلف البابوية والمجر وبولندا والصرب وبلاد الأفلاق وجنوة والبندقية والإمبراطورية البيزنطية ودوقية برجنديا، وانضمت إلى الحلف أيضاً كتائب من الألمان والتشيك. وأعطيت قيادة قوات الحلف الصليبي إلى قائد مجري قدير هو يوحنا هنيادي. وقد قاد هنيادي القوات الصليبية البرية وزحف جنوباً واجتاز الدانوب وأوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين عام (٨٤٦ هـ / ١٤٤٢م)، واضطر العثمانيون لأول مرة في تاريخهم إلى طلب

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٢٧ ــ ٤٢٨.

الصلح، فأجيبوا إلى طلبهم، وعقدت هدنة تلتها معاهدة عام (٨٤٨ هـ / ١٤٤٤م) كانت قاسية بالنسبة للعثمانيين، فقدوا فيها أهم أقاليم بلاد الصرب ووالاشيا، وتعهد فيها مراد وفلاديسلاف ملك المجر أن يكون نهر الدانوب حداً فاصلًا لا تعبره جيوش الفريقين لمدة عشر سنوات[١].

ولقد أوفى العثمانيون بوعدهم وجلوا عن المواقع التي تقررت في المعاهدة، ولم يكد يفرغون من الانسحاب حتى قام هنيادي بهجوم على بلغاريا. ورد مراد على ذلك بأن خرج على رأس جيش جرار وهاجم قوات التجمع الصليبي عند فارنا إلا بعد مضي أربع سنوات، حين زحف على بلاد الصرب أواخر عام (٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) على رأس جيش يتكون من (٢٥,٠٠٠) رجل من الألمان وسكان والاشيا وبوهيميا والمجر. وحينئذ زحف مراد، وهو يقود جيشاً بلغ عدده (٥٠,٠٠٠) جندي، وتقابل مع القوات المتحالفة في سهول قوصوه في ١٧ أكتوبر ١٤٤٨م (٨٥٢ هـ)، واستمرت المعركة ثلاثة أيام وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين. وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين[٢].

ولم تمض بضع سنوات على هذا الانتصار الباهر الذي تم على يدي مراد الثاني حتى توفي في ٥ فبراير ١٤٥١ م (٨٨٥ هـ) وخلفه ابنه محمد باسم السلطان محمد الثاني[٣].

السلطان محمد الثاني أو الفاتح (٨٥٥ - ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م)

يقترن اسم السلطان محمد الثاني بحادث هام في تاريخ الشرق

---

(١) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ٣١ ــ ٣٨.
(٢) د/علي حسون، المرجع السابق، ص ٣٣.
(٣) محمد فريد بك، المرجع السابق، ص ٥٧.

الأدنى هو فتح القسطنطينية، ولهذا السبب علقت باسمه صفة الفاتح. ولهذا السبب أيضاً تبوأ مكاناً بارزاً بين سلاطين الدولة العثمانية. وقد امتاز بدبلوماسية واعية متيقظة ذكية وأطماع واسعة وشجاعة في الحروب، وتعمق في دراسة الجغرافيا والتاريخ والعلوم العسكرية. وكان يتكلم التركية والعربية والفارسية واليونانية، كما اهتم ببناء المساجد والمنشآت الخيرية، واستقدم لهذا الغرض صفوة الفنانين اليونانيين والإيطاليين[1].

ولقد أراد محمد الثاني منذ الأيام الأولى لحكمه حسم مشكلة القسطنطينية بالاستيلاء على هذه المدينة، فقد كانت تتخذ وكراً للمؤامرات التي تدبر ضد الدولة العثمانية. ولذلك استعد السلطان سياسياً وعسكرياً للاستيلاء على القسطنطينية وكان من بين الإجراءات السياسية التي اتخذها أنه جدّد المعاهدات واتفاقيات الهدنة مع جميع جيرانه والأمراء الذين تربطهم بالدولة علاقات معينة مثل البندقية وجنوة والصرب ووالاشيا وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس. وكان هدفه من وراء تجديد هذه الاتفاقيات، عزل الدولة البيزنطية سياسياً وعسكرياً عن الدول والإمارات سواء المجاورة أو المتاخمة لها. أما عن الإجراءات العسكرية، فقد أكمل إقامة المنشآت التي بدأها السلطان بايزيد الأول على مقربة من القسطنطينية. وكان هذا السلطان قد شيد قلعة على الجانب الآسيوي من البسفور، فشيد السلطان محمد على الجانب الأوروبي للبسفور قلعة أخرى على بعد لا يتجاوز سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية عند أضيق نقطة من البسفور. وبهذا العمل سيطر العثمانيون على ضفتي البسفور[2].

---

(١) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٢٩.

(٢) د/علي حسون، المرجع السابق، ص ٣٤.

ومنذ شهر أبريل ١٤٥٣ م (٨٥٧ هـ)، أحدق السلطان محمد الثاني بالقسطنطينية من ناحية البر بقوات جرارة بلغ تعدادها أكثر من ربع مليون جندي. وقد استمر الحصار ثلاثة وخمسين يوماً (٦ أبريل حتى ٢٩ مايو). وقد غمر الحماس الديني الفريقين المتحاربين، ومن ثم أخذت الحرب بينهما الطابع الديني. فقد استمات البيزنطيون في الدفاع عن القسطنطينية على أساس أنها معقل المسيحية الشرقية، بينما صمم العثمانيون على فتحها لاتخاذها عاصمة للإسلام. وفي ٢٤ مايو ١٤٥٣م (٨٥٧هـ)، أصدر السلطان أمره بالاستعداد للهجوم العام على القسطنطينية براً وبحراً، وانتشر رجال الدين في معسكرات الجيش يصيحون «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ويردد الجنود هاتين العبارتين في صوت هادر قوي. وبلغ الحماس الديني أقصاه حين بدأ الهجوم العثماني في ٢٨ مايو. ورغم أن المهاجمين لقوا مقاومة عنيفة عند البوابة الرئيسية التي كانت تسمى بوابة القديس رومانوس، فقد نجح الانكشارية في تسلق أسوار العاصمة في هذه الجهة، وفاجأوا الحامية التي ترابط عند بوابة أخرى. وأحيط الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين دراجازيس) ومعه خيرة القادة والجنود بالعثمانيين من خلف ومن أمام وأصيب الإمبراطور بضربة سيف في وجهه وأخرى في مؤخرة رقبته وسقط صريعاً وسط أكوام الجثث. واقتحم العثمانيون بوابة ثالثة وتدفقوا إلى داخل المدينة يقتلون فريقاً ويأسرون فريقاً وينهبون البيوت. وفي ظهر ٢٩ مايو دخل السلطان محمد الثاني القسطنطينية من البوابة الرئيسية، وصلى صلاة الظهر في كاتدرائية القديسة صوفيا إيذاناً بتحويلها إلى مسجد. وأطلق على مدينة القسطنطينية اسلامبول أو استانبول أي عاصمة الإسلام[1].

(١) إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص ٣٩ ــ ٤٧. وانظر كذلك، إبراهيم بك حليم، المرجع السابق، ص ٣٠، محمد فريد بك، المرجع السابق، ص ٥٨.

ولقد كان حادث فتح القسطنطينية بداية حروب هجومية طويلة شنها السلطان محمد الفاتح على بلاد الصرب والبوسنة والهرسك والمورة وألبانيا وجمهوريتي جنوه والبندقية. ومملكة نابولي. وقد حالفه التوفيق في معظم هذه الحروب، ولكنه أخفق في الاستيلاء على بلغراد عاصمة الصرب وفي غزو جزيرة رودس، وهما موقعان هامان، لأن بلغراد كانت مفتاحاً لسهول المجر، وكانت جزيرة رودس معقلًا لفرسان القديس يوحنا يهاجمون منها السفن الإسلامية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وسيقوم بالاستيلاء على هذين الموقعين أحد حفدته، وهو السلطان سليمان القانوني[1].

وكان للسلطان محمد الثاني أيضاً حروب في آسيا الصغرى، حيث قضى عام ١٤٦١ على مملكة طرابزون، وهي مملكة مسيحية يونانية في شمالي الأناضول، كما خاض عام ١٤٧٣ م/٨٧٧ هـ حرباً ضد إمارة أوزون حسن التركمان في أعالي الفرات[2].

السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ ــ ٩١٨ هـ/١٤٨١ ــ ١٥١٢ م)

كان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب، متفقهاً في علوم الشريعة الإسلامية شغوفاً بعلم الفلك. واستعان بالخبراء الفنيين اليونانيين والبلغاريين في تحسين شبكة الطرق والجسور التي أقامها أسلافه للأغراض العسكرية واشتهر بمنشآته المعمارية، وكان على رأسها المسجد الذي حمل اسمه والذي شيده في الآستانة (فيما بين عامي ١٤٩٧ و ١٥٠٣ م) (٩٠٣ و ٩٠٩هـ) ، وكانت بنايته وزخرفته مستمدتين من الفن الفارسي[3]

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٦٦ ــ ٦٧.
(٢) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) حـ ٨، ص ٨٨.
(٣) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٤١.

ولقد حدث نزاع شديد على العرش بين بايزيد الثاني وأخيه جم، وحاول بايزيد القبض على أخيه، ولكنه فشل، فلجأ جم إلى بلاد الشام وانحدر جنوباً حتى بلغ القاهرة لاجئاً سياسياً لدى السلطان قايتباي، فرحب به وأمده بجميع ما احتاجه من أموال للسفر مع أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ولما عاد من الحجاز زوده السلطان قايتباي بالمال، وأغراه بإجراء اتصالات سياسية بينه وبين أخيه السلطان بايزيد الثاني تستهدف السماح له بالرجوع إلى الآستانة، بشرط تعيينه على القسم الآسيوي من الدولة العثمانية أو مشاركته في السلطنة دون حاجة إلى تجزئة أو تقسيم، ولكن بايزيد رفض رفضاً باتاً المساومة على أي من هذين الافتراضين. ولم يلبث أن قام جم بالاتصال بكبار أتباعه في الأناضول، وأثارهم ضد بايزيد، وتقدم بأتباعه ليغتصب العرش، ولكنه هزم، واستأنف المحاولة فهزم أيضاً[1].

ورأى جم بعد هزيمته الثانية ألا يلجأ إلى مصر، ولكن إلى أوروبا، فاتصل برئيس فرسان القديس يوحنا في رودس عام ٨٨٥/١٤٨٠ هـ، ولجأ إليهم. ولكن رئيس الفرسان لم يكرم وفادة جم، فبعد أن عقد معه اتفاقاً، ما لبث أن نقضه، وألقى جم سجيناً في جزيرة رودس، واكتسب بهذه الرهينة الخطيرة امتيازات لفرسان القديس يوحنا طوراً من بايزيد الثاني وطوراً من أنصار جم في القاهرة. فلما استنزف أموال الطرفين، باع رهينته للبابا أنوسنت الثامن، فلما مات هذا البابا ترك جم لخلفه اسكندر السادس ولكن الأخير لم يبق على جم طويلًا، فقد قبل من بايزيد مبلغاً مقابل دس السم لجم، ونفذ ما كلف به[2].

---

(١) كارل بروكلمان المرجع السابق، ص ٤٤٤.

(٢) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٧٤ ــ ٧٥.

ولا شك أن تصرفات جم المشينة بانضمامه إلى أعداء الدولة، كانت سبباً أعاق حركة التوسع الإقليمي وشل يد السلطان عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصباً على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكافة الوسائل[1].

وعلى العموم، فقد حاول بايزيد الاستيلاء على سوريا ولكنه فشل. أما في الميدان الأروبي، فقد استطاع بايزيد أن يحرز نصراً بحرياً على البنادقة في خليج لبانتو ببلاد اليونان عام ١٤٩٩ م/٩٠٥ هـ، وفي العام التالي استولى على مدينة لبانتو. وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة في اليونان، أقام البابا (إسكندر السادس) بناء على طلب البنادقة ـ حلفاً ضد العثمانيين مكوناً من فرنسا وإسبانيا. وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة: الفرنسي والإسباني والبابوي. ولكن الصلح لم يلبث أن عقد بين العثمانيين والبنادقة[2].

وكان بايزيد محباً للسلام، ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوروبا، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينها وبين البابوية وفلورنسا ونابلي وفرنسا. وعقد صلحاً مع البنادقة والمجر.

اهتم بايزيد بإنشاء المباني العامة وفعل الخيرات، فبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والخانقاوات والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور، كما رتب للمفتي ومن في رتبته من العلماء في زمنه كل عام عشرة آلاف عثماني، ولكل واحد من مدرسي المدارس السلطانية ما بين سبعة آلاف وألفين

(١) د/سيد الدقن، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٢) د/ أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ١٠٢.

عثماني، وكذلك رتب لمشايخ أهل الطرق الصوفية ومريديهم ولأهل الزوايا كل واحد على قدر مرتبته، وصار ذلك أمراً جارياً ومستمراً، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم إحساناً كبيراً، ومنح العطايا والهبات لفقراء الحرمين الشريفين في مكة والمدينة[1].

ولقد كان أولاد بايزيد الخمسة يحكمون الأناضول، كل في ولايته الخاصة في حرية كاملة، إلى أن استطاع أجسرهم وأقواهم وهو سليم أن يقضي على أخيه الأكبر ثم على بقية المنافسين ثم على أبيه بأن عزله بمساعدة الانكشارية. ومع أنه أحاط أباه بكل مظاهر التكريم وهو في الطريق إلى منفاه في مسقط رأسه ديموتيقه، فإن المتداول على أقلام المؤرخين أن سليماً كلف طبيباً يونانياً بأن يدس له السم، فمات وحل محله[2].

(١) أحمد بن محمد الحموي، فضائل سلاطين بني عثمان، تحقيق د/محسن سليم القاهرة ١٩٩٣، ص ٣٢.

(٢) د/علي حسون، المرجع السابق، ص ٣٤.